

البعد الأنثروبولوجي في تخطيط و بناء المسكن في المجتمع الجزائري

The anthropological dimension for planning and building housing in Algerian society

زازوي موفق

جامعة تلمسان (الجزائر)

zmoufek@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2021/11/14 تاريخ القبول: 02-02-2022 تاريخ النشر: 15-02-2022

الملخص: نسعى في هذه المداخلة إلى تقديم محالة لقراءة أنثروبولوجية لبناء المسكن و تخطيطه في المجتمع الجزائري. من خلال إشكالية التقليد والحداثة التي أفرزت خصوصية ثقافية أدت إلى طرح مجموعة من التقابلات: تقليدي/ حدائي، مقدس/ مدنس، ديني / علماني.. نحاول من خلال ذلك إثارة بعض التساؤلات التي تخص ظاهرة السكن عند الفرد الجزائري

الكلمات المفتاحية: المسكن، الحداثة، التقليد، المقدس، المدنس، العلماني، الديني.

.Abstract : In this intervention, we seek to present an anthropological reading of housing construction and planning in the Algerian society. Through the problematic of tradition and modernity, which result in a cultural specificity that led to a set of encounters: traditional/modern, sacred/profane, religious/secular...we try to provoke Some questions concerning the phenomenon of housing forthe Algerian individual.

Keywords: dwelling, modernity, tradition, sacred, profane, secular, religious.

المؤلف المرسل: زازوي موفق، الإيميل: zmoufek@yahoo.fr

نسعى في هذه المداخلة إلى تقديم محاولة لقراءة أنثروبولوجية لبناء المسكن و تخطيطه في المجتمع الجزائري..

حينما نتكلم عن البعد الانثروبولوجي نعني به الثقافة التي تسود مجتمع من المجتمعات على أساس أن الثقافة تحمل في طياتها طريقة أسلوب عيش مجتمع من المجتمعات. فيدخل في ذلك العادات و التقاليد و الأعراف و المقدس و المدنس و الدين و الأسطورة و السحر و كل ما يعتقد شعبي من الشعوب. غير أن المفارقة التي تثيرنا في هذه المداخلة، أن المجتمع الجزائري يتميز بامتلاكه لثقافة تقليدية ذات طابع ديني ميتافيزيقي من أبرز خصائصها الولاء للجماعة و خضوعها للمقدس الديني في مقابل ثقافة حديثة ذات طابع علماني تلقاها المجتمع الجزائري نتيجة الاستعمار الفرنسي و هذا ما يتعارف عليه بصدمة الحداثة. الأمر الذي خلق ازدواجية ثقافية عند الجزائري ، إحداهما تقليدية و الأخرى حديثة. أمام هذه التقابلات الثنائية : تقليدي و حديثي، مقدس و مدنس، ديني و علماني. نحاول إثارة بعض التساؤلات التي تخص ظاهرة السكن عند الفرد الجزائري و بعض الممارسات الثقافية التي تطبع سلوكه؟ انطلاقاً من هذا التقديم سوف أتطرق إلى النقاط الآتية:

- في تحديد مفهوم السكن لغة و اصطلاحاً..

- في مفهوم البعد الانثروبولوجي.

- تخطيط و بناء المسكن في الثقافة الجزائرية

- المسكن و الهوية.

2/- التحديد اللغوي و الاصطلاحي لمصطلح السكن

عندما نعود للمعاجم و الموسوعات و منها ابن منظور(ابن منظور، ص112) نجد مصطلح

السكن: جاء من الفعل : سكن يسكن مسكناً. و يعني الإقامة بمكان معين مهياً للسكن. و هنا نجد

الإنسان يتغني من وراء ذلك طلب الاستقرار في المكان لجلب الهدوء و الراحة و الاطمئنان.

عندما نتأمل في فعل السكن نجد مرتبط بالسكنية و الهدوء و مرتبط كذلك بفعل النزول،

يشير الدكتور عبد العزيز سيد الأهل في كتابه قاموس القرآن أن الفعل سكن جاء على خمسة أوجه منها:

البعد الأنثروبولوجي في تخطيط و بناء المسكن في المجتمع الجزائري

الوقار و النزول و الإنس و الطمأنينة و سكينه التابوت(عبد العزيز سيد الأهل، 1980، ص 241-242).

وعلى هذا الأساس نجد الفعل سكن يسكن من السكون و هي عكس الحركة و تعني طلب الهدوء و الراحة و السكينة.

فقد نقول في هذا الصدد سكنت الشاه بعد ذبحها: بمعنى هدأت وذهبت حركتها. لذلك

قالت العرب: السكن لما يسكن إليه، و يقصد بذلك السكون إلى الشيء و الاطمئنان إليه. و منه جاء قوله تعالى: و جعل لكم الليل سكنا. (الأنعام، الآية 96).

و قوله تعالى كذلك: و خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها. (الروم، الآية، 21).
في هذا الإطار نجد في المعتقد الشعبي كلمة المسكون كأن نقول هذا البيت مسكون. أي تسكنه أرواح أخرى غير الإنسان كالأرواح الشريرة مثلا.

و عند الرجوع إلى اللغة الفرنسية نجد كلمة سكن المعبر عنها بالفعل

habitare و التي جاءت من الكلمة اللاتينية habiter- loger

تقدم لنا دلالات عدة منها: أسكن هذا المنزل: اتخذه سكاني الاعتيادي أي الذي اعتدت

التردد عليه. و قد يعني السكن و العيش فيه بحيث يصبح المكان المسكون مشغولا. و يصبح الإنسان متواجدا فيه. (Maurice davan, et autres, 1976, p 608.)

أما التعريف الاصطلاحي للسكن: فانه احد معاني المكان و هو الموضوع أو المحل، و جمعه أمكنة، و هو المحل المحدد الذي يشغله الجسم. (جميل صليبا، 1982، ص 412).

يشير المسكن كذلك إلى محلات الإقامة التي تهيأ للناس في مجتمع معين. وهو من أهم العوامل التي تؤدي إلى تأمين الاستقرار للحياة الاجتماعية. و تختلف المساكن من بلد إلى آخر تبعا لظروف و ثقافة كل بلد. فهي من أهم أشكال الثقافة المادية للمجتمع.

انطلاقا من هذين التعريفين: الاشتقاقي و الاصطلاحي يمكن القول أن المسكن هو الوسط أو الحيز المادي الذي يحمي الإنسان و يحقق السكون و الهدوء، و المنزل من النزول و منه جاء مفهوم النزول و هو مكان ما للإقامة فيه، و هو تعبير عن الحضور أو التواجد و إثبات الوجود. و هو كذلك فضاء للحرية و الاستقلالية كما أنه فضاء للاستقرار و الراحة و استرجاع النفس. و من مرادفات السكن الدار التي

زازوي موفق

توحي لنا بمفهوم الدارة أو الدائرة المغلقة و كأنها تمثل سياجا يحيط و يعزل كل من بداخله عن الفضاء الخارجي. و ربما جاءت كلمة دوار كتعبير عن كل تجمع سكاني صغير وهو من اجتماع عدة ديار.

3/- في مفهوم البعد الأنثروبولوجي:

يقصد بالبعد الانثروبولوجي الجانب الثقافي و الذي ينطوي على تدخل الثقافة و مكوناتها في بناء و تخطيط السكنات. وقد بين الاثنولوجيون و الأنثروبولوجيون أن هناك علاقة وطيدة بين المسكن و المجتمع و الثقافة. و قد بين مارسيل موس أهم الجوانب التي ينبغي أن يتناولها الاثنولوجي بالدراسة منها المواد المستخدمة في البناء و شكل البناء و الأثاث المستعمل و المعتقدات و الطقوس المرتبطة بذلك و الطبخ و الحديقة المرتبطة بالمنزل و طريقة تزيينه و بنائه و الغاية من استخدامه و قد أشار إلى أن المنزل لا تكتمل دراسته إلا في علاقته بالقرية و المدينة (Marcel Mauss, 1967, p73-78). و قد تضاربت الآراء و النظريات حول العوامل المؤسسة للمنزل فقد أشار من خلال ذلك إلى أهمية العوامل الاجتماعية و الثقافية المحددة للمسكن، حيث بين أن المسكن ظاهرة معقدة منتقدا النظريات التي أرجعت المسكن إلى عامل واحد. فهناك من ركز على العامل المادي كالمناخ و الحاجة إلى المأوى، و المواد و التقنيات و الموقع، و هناك من أرجعها إلى العوامل الاجتماعية و الاقتصادية و العسكرية و الدينية. و لذلك فإن الاعتماد على تفسير واحد قد يعطي للمسكن تفسيراً بسيطاً أحادي الجانب... فهو ظاهرة معقدة تتداخل فيها كل هذه العوامل مشتركة (Amos rapoport, 1972, pp26-61)

إن فهم ثقافة شعب من الشعوب وظروفه المعيشية تساعد على تفسير كل سلوك يرتبط به. فحسب مالبينوفسكي انه إذا تمكنت من معرفة أي أحد من الشعوب و أيا كان سلوكه فأنهلا يخرج عن الضروريات المحضة للحياة. من اكتشاف المواد الأساسية و إشباع للدوافع الجنسية و ما شابه ذلك، فانه يمكنك بذلك أن تفسر مؤسساته الاجتماعية و معتقداته و أساطيره و ما شابه ذلك. و مثل هذا التصور شديد الانتشار في الأنثروبولوجيا (كلود ليفي ستروس، 1986، ص 35).

من هنا يمكن القول أن المسكن ظاهرة معقدة تتداخل فيها العوامل الاجتماعية و الثقافية و الطقسية و الاقتصادية و الفيزيائية. و هذا ما دعا رابوربت إلى القول أن المنزل يعد ظاهرة ثقافية، و أن شكله و هيئته يتأثران بالضرورة بالحيث الثقافي الذي ينتمي إليه (amos rapoport, 1972, p59).

3/- الثقافة الجزائرية و إشكالية التقليد و الحداثة.

البعد الأثروبولوجي في تخطيط و بناء المسكن في المجتمع الجزائري

تحدد الثقافة في مفهومها الكوني العام و في معناها الاتنولوجي على أنها " ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة و المعتقدات و الفن و الأخلاق و القانون و العادات و كل القدرات و العادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عظوا في المجتمع " . (دنيس كوش، 2004، ص31). كان هذا مع العالم الأمريكي تايلور.

و حينما نتكلم عن الثقافة يمكننا القول " أنها المفهوم الوحيد الذي من خلاله يتم الكشف عن العام و الخاص فهناك الإرث الإنساني و هو القاسم المشترك بين البشرية جمعاء إلى جانب التميز و الاختلاف والخصوصية يفهم من هذا أن للثقافة مفهوما آخر خاصا لذلك لئن كانت المجتمعات الإنسانية تختلف في امتلاك المخزون الوراثي فان مرد ذلك يعود إلى اختياراتها الثقافية. ذلك أن كل منها قادرة على ابتداع حلول و ابتكارات للمشاكل المطروحة " . (دنيس كوش، 2004، ص10).

إن الحديث عن الثقافة في المجتمع الجزائري نقصد بها جملة الصفات أو السمات التي يتميز بها الفرد الجزائري و تشكل أسلوب حياتهم الخاصة و التي تشكل لهم نظرة خاصة لذواتهم و للآخرين. و تشمل كذلك كل ما يعتقدونه و يؤمنون به . كما تشمل كذلك جملة العادات و التقاليد و الأعراف و العقيدة و الفنون.... و نقصد بها خصوصا تلك الثقافة التي ارتبطت بإشكالية التقليد و الحداثة في المجتمع الجزائري . فهذا الأخير يمتلك إرثا ثقافيا يعرف بالثقافة التقليدية، و التي تحمل تلك القيم المتعارف عليها و التي تم الحصول عليها من تراث المجتمع. كما تهدف إلى إعادة بناء و إحياء ما هو موجود سابقا و محاولة الاحتفاظ و التمسك بها.

إلى جانب ذلك عرف المجتمع الجزائري تواجد ثقافة غربية حديثة والتي جاءت عن طريق الاستعمار . و تختلف كلية في طبيعتها، الأمر الذي احدث نوعا من الصراع القيمي و الصراع الايديولوجي بين النخب.

هذا الواقع أفرز وضعاً ثقافياً تميز بالتعايش بين هذين النمطين من خلال تبادلي و تجنب الصراع القائم بينهما كل ذلك خلق خصوصية ثقافية ميزت المجتمع الجزائري . غير أن الباحثين في هذه الثقافة وعلى رأسهم جمال غريد في كتابه الاستثناء " اعتبر الاستعمار الفرنسي و من ثمة الحضارة الصناعية التي حملتها إلى جانب العلاقة بالاستعمار - المقاومة و التكيف - العنصران اللذان طبعا في العمق المجتمع الجزائري، و يشرحان بالأخص لماذا يعيش المجتمع و نخبه حاضرا في التمايز و التعارض الثقافيين، و يظهر هذا الإنتاج على أنه استثناء، بحيث أن ما حدث في الجزائر لم يحدث في أي دولة عربية أخرى بخصوص

زازوي موفق

طبيعة الفعل الاستعماري و ما نتج عنه من ثنائية” (بشير محمد، 2017، ص 66). إلى جانب ذلك نجد نور الدين طوالي وعلي الكنز، توصلا إلى أن هذه الثقافة يطبعها نوعا من الازدواجية الثقافية تتمثل في وجود ثقافتين مختلفتين من حيث الطبيعة متعايشتان في الوقت نفسه، إحداها تقليدية والأخرى حديثة. الأولى تتميز بطبيعة دينية ميتافيزيقية يشوبها طابع التقديس أما الثانية فهي من طبيعة دنيوية علمانية. لهذا لا نستغرب حينما نلاحظ بعض التناقضات تطبع سلوك الجزائريين.

قد لا نستغرب عندما نلاحظ الأم مع ابنتها في الشارع، بحيث نجد الأم ترتدي لباسا تقليديا على غرار الحجاب أما البنت ترتدي لباسا يتماشى و الموضة التي جاءت بها الحضارة الغربية، و التي تدعو إلى سفور المرأة و تحررها من ربقة العادات و التقاليد ومن كل ما هو تقليدي. هذا ما عبر عنه الباحث الجزائري جمال غريد بالثنائية الثقافية و التي عبر عنها كذلك نور الدين طوالي بالتقاطب الثقافي، هذا الأخير الذي يخلق نوعا من العصاب عند الفرد الجزائري نتيجة الانشطار و الازدواجية التي يعيشها الفرد في المجتمع الجزائري.

مثل هذه التناقضات التي تظهر في سلوك الفرد الجزائري نتجت عن صعوبة المرح بين ثقافتين إحداها تقليدية والأخرى حديثة .

هذا الطرح سيكون المدخل الذي يقودنا إلى تقديم تفسير و إجابة عن بعض المظاهر و السلوكيات المتناقضة و التي نلاحظها في ممارسات الجزائريين عند محاولتهم تخطيط و بناء سكناتهم. منها بعض هذه المفارقات في تخطيط و بناء المسكن في المجتمع الجزائري

4 - تخطيط و بناء المسكن في الثقافة الجزائرية

1.4 الاعتقاد في عالم الأرواح:

المفارقة المثيرة في سلوك الجزائري تكمن عند محاولته بناء مسكن فهو إلى كونه يملك منزلا فخما مبنيا وفق هندسة معمارية حديثة، فانه في مقابل ذلك نجده يعتقد أن هذا الفضاء السكني قد تعمره كائنات أخرى غير مرئية قد تلحق به الشر في أي وقت ما يعود ذلك للمعتقدات المتعلقة بالعالم الآخر.. فكثيرا ما نسمع أن هذه الدار مسكونة و أن هناك أرواحا شريرة تسكنها وقد تؤذي كل من يدخلها أو يقترب منها.

البعد الأثروبولوجي في تخطيط و بناء المسكن في المجتمع الجزائري

يصور المعتقد الشعبي عالم الجن متواجدا في فضاءات قد يشترك فيها مع الإنسان أو تكون قريبة منه، لا تكاد تنفصل عن مسكنه اليومي المألوف مثل الآبار و دورة المياه و أماكن الاستحمام و مجاري المياه أو المباني المهجورة. لذلك فبناء المسكن لم يقتصر على الإنسان ووحده و إنما يدخل في بنائه معتقدات تتضمن الاعتقاد في العالم الآخر غير المرئي من الأرواح. لهذا يتوجب على ساكن الدار إرضاء هذه الأرواح غير المرئية لاستبعاد اتقاء شرها و أذاها. السبيل إلى ذلك الذبح على عتبة المنزل أو ترك بعض الأكل على المائدة ليلا لتغذى عليه هذه الأرواح...

4.2 الباب و العتبة عناصر مقدسة:

يمثل الباب الواجهة التي تحضر بعناصرها الزخرفية من أشكال و ألوان تجلب الأنظار إليها، إلى جانب ذلك هنالك جملة من الممارسات و الطقوس تمارس أثناء بناء الباب و تصميمه. فكثيرا ما يتم دفن قطعة نقدية تحت عتبة الدار على أساس أن هذه النقود تمثل في المخيال الشعبي الكفالة و هي ضد الحاجة و الفقر (عماد صاولة، 2005، ص 5-22).

و قد مثلت العتبة في المخيال الشعبي مرحلة عبور لذلك فقد ربط فان جينب العتبة بطقوس العبور لأنها تعبر عن الانتقال من مرحلة إلى أخرى. فكل إنسان يمر حسب نظريته، بمراحل عدة خلال حياته. تتوأكب هذه التحولات بطقوس مختلفة طبقا لكل مجتمع... فهناك طقوس عبور خاصة بالولادة و طقوس عبور خاصة بالموت، و أخرى خاصة بتولي منصب سواء كان مهنيا أو دينيا أو سياسيا أو غير ذلك. (بيار بونت، ميشال ايزار، ص 632، 211).

و العتبة في التصور الشعبي تماثل الباب و إن كانت تمثل عنصرا من عناصره فقد أفردت لها مجموعة من الطقوس و ذلك للأهمية التي تكتسيها على أساس أنها تمثل فاتحة العبور إلى عالم آخر له قدسيته و حميميته لذلك فقد خصص أرنولد فان جينب Arnlond van gennep جملة من الطقوس للعتبة أطلق عليها طقوس العبور، فهي تمثل مرحلة الانتقال من مرحلة إلى أخرى و تعني الانتقال والالتحاق بعالم جديد. (Arnold van gennep 1981, p27) و هي ترمز إلى وجود خط فاصل بين عالمين مختلفين : العالم المدنس و العلم المقدس فقد نجد من يعبر بقوله إن عتبة هذه الدار مبروحة. ذلك أن العتبة هي بداية الدخول إلى المسكن فإذا كانت مباركة جاء كل ما أسس عليها ميمونا و مباركا. و إذا كانت العكس من ذلك كان المسكن نذير شؤم و مصدر شر. لذلك ارتبطت العتبة بفعل التغيير سواء

زازوي موفق

تعلق الأمر بتغيير المرأة أو تغيير المنزل. هذا ما يلاحظ في كلام البعض عند قولهم غير باب الدار أ غير عتبة الدار هي إشارة إلى تغيير المرأة

و قد جاءت العتبة لتشير إلى التقابل بين فضاءين مستقلين. يمثل الأول فضاء الشارع العمومي ويمثل الثاني فضاء المنزل الخصوصي. فالخارج يمثل المدنس بينما الداخل يشير إلى المقدس لذلك صورت العتبة في المخيال الشعبي كالحاجز العازل أو الفاصل بين هذين الفضاءين. فهي تمثل شيئا مقدسا تولى له كل العناية و الاهتمام. إنها ترمز إلى الحرمة و إلى الحميمية كونها مكاملة و معززة للفضاء المكاني. لهذا يسمى الحائط الذي يحمي المنزل بالامازيغية- أفراق- و هي من الفعل فرق أو قسم بين شيئين أو بين حيزين (سليمان بومدين، 2007، ص 49-66). فكانت العتبة رمزا للفصل بين هذين الفضاءين الخارجي و الداخلي. و ما يتضمن هذا الفصل من طقوس و ممارسات منها إراقة الدماء من خلال تقليم الأضحية للروح المالكة له خاصة عند الانتقال إلى مسكن جديد(دوران جيلبير، 2006، ص 223-224).

و إذا كان الباب يتم تزويده بقفل حتى يكون البيت أكثر مناعة و أكثر تحصينا . فانه غالبا ما كان يعلق أعلاه أدوات حديدية كروؤوس و قرون بعض الحيوانات. إلى جانب تواجد الخامسة التي أصبحت تصنع من حديد في شكل قبضة يد تستخدم لطرق الباب عند محاولة الاستئذان بالدخول إلى فضاء البيت. إن مثل هذه العناصر التي تعلق بالباب، كثيرا ما تكون مليئة بالإيجاءات و الرموز التي توحى بالقوة و السلطة و السلاح. و كلها عناصر مطلوبة في حماية المنزل من أي أذى كالعين و الأرواح الشريرة.

3.4 الدار و المرأة

من بين المفارقات التي نجدها عند الجزائري ربطه بين المرأة و الدار و هذا ما نلاحظه في خطاب الجزائريين و يتضح هذا في تعابير الثقافة الشعبية الشفوية كتعبير الرجل عن المرأة في قوله: الدار غايين، الدار مرضى أو الدار مسافرين (محمد سعدي، 1997، ص 6-14). و هو تعبير في حقيقته يخفي صراع الذكورة و الأنوثة.

إن ما يميز هذا الخطاب توظيفه للدار ضمن ثقافة ذكورية فأسقط مصطلح المرأة الذي أصبحت بالنسبة له عارا لا يمكن البوح به أمام الغرباء. و أصبح فعل التغيب واقعا من خلال التعبير عنها بأشياء

البعد الأنثروبولوجي في تخطيط و بناء المسكن في المجتمع الجزائري

وجمادات شبيهة بها. و أحيانا قد يلجأ هذا المنطق الذكوري إلى حد استخدام النكتة للحط من قيمة المرأة و نعتها بالدونية.

هكذا يمكن القول أن مصطلحي التقديس و التدنيس يحكماهما منطق خضوع الآخر و تذويبه في الأنا. فكانت القاعدة كلما ذاب الآخر المقابل في الأنا الذكوري أطبع عليه صفة التقديس، و كلما خرج عن طاعته ومارس فعل التمرد ألصقت به صفة التدنيس .

و قد ارتبطت عتبة الدار بالمرأة خاصة أثناء الأعراس. مما توجب على العروس ممارسة طقوس خاصة بها، تمكنها من اجتياز العتبة. تكمن أهمية هذه الطقوس من أهمية هذا الشخص الجديد الذي يتم إدخاله إلى العائلة. فهذه المرأة مثل العتبة قد تكون فأل خير أو فأل شر بالنسبة للفضاء السكني الجديد... فقد توصل محمد بوغالي إلى أن العتبة بالنسبة للمغاربة الأميين تمثل محل التقاء و اتصال بالفضاء المنزلي، وهي محملة بقوة خير، كل اختراق لها يمكن أن يضعفها و يجعلها تختفي و لما كانت زوجة المستقبل موهوبة بطهارة غدريتها، فانه بإمكانها أن تعرض التوازن الحيوي للمنزل إلى الخطر، فهي مثل العتبة موهوبة بقوة معينة لهذا يجب تجنب الالتقاء العنيف و غير المهيأ لقواهما المتبادلة Edward) Sapir, 1967, p52. إن هذا الجمع بين المرأة و الدار يرمي إلى محاولة تشييء المرأة و جعلها من الأمور المملوكة للرجل يتصرف بها كيف و متى شاء.

5. المسكن و الهوية

حتى و إن كان يبدو من الوهلة الأولى أن هناك اختلافا بين المفهومين : ثقافة / هوية، على أساس أن هذه الأخيرة تمجد الاختلاف سواء بين المجتمعات أو بين الأفراد داخل المجتمع الواحد فإنه كثيرا ما تحيل الاستفهامات الكبرى بصدد الهوية إلى مسألة الثقافة، فهناك رغبة في أن نرى الثقافة في كل مكان و أن نجد الهوية لكل الناس. فبالرغم من الاختلاف القائم بينهما إلا انه يمكن الربط بينهما تحت ما يعرف بالهوية الثقافية (دنييس كيش، 2007، ص ص 147-148). أو الخصوصية الثقافية، ذلك لان كل ثقافة مهما كانت تكون محملة بالرمزية حتى السلوك البسيط منها. (عبدالله بن معمر: 2018، ص 56).

- من المتعارف عليه في بناء السكنات أن كل نمط عمراي يخضع لهندسة سكنية معينة تتأثر لا محالة بثقافة المجتمع، فيكون المسكن تعبيرا عن هوية ذلك المجتمع و ثقافته.

زازوي موفق

لقد كان بناء المسكن قديما في المجتمع الجزائري يعتمد على وسائل و مواد محلية و طبيعية من طوب و تبن و من شعر الحيوان . غير أن هذه المواد تعولت بمعنى أنه أصبحت تنقيد بمعايير عالمية تحت ما يعرف بعولمة مواد البناء.

و كان تخطيط المنزل تقليديا في المجتمع الجزائري يخضع للحاجيات و الضروريات التي تتطلبها العائلة الجزائرية. فمن خلال الدراسة التي قام بها عالم الاجتماع الفرنسي بيار بورديو حول المنزل القبائلي تبين أن المنزل يقوم على مجموعة من التقابلات تخص نظامه الداخلي. في علاقته بالخارج. و المنزل حسب تحليله ينقسم إلى قسمين : القسم الأسفل منه مخصص للأشياء كالجرار و الماء و الإسطبل و الحيوانات... يقابله قسم أعلى و هو مكان النار و الموقد و أدوات الطبخ و المنسج . هذا التقابل بين القسمين يشبه التقابل بين الذكر و الأنثى، والذي يحيل إلى تقابل آخر بين الداخل الذي يخصص للنساء و فضاء الحقل الخارجي المخصص لأعمال الرجل. يمثل المنزل الذي هو عالم المرأة ، المقدس و المحضور عن كل من هو غريب عنه، كما يترتب ضمن هذه التقابلات كأن يصبح المنزل مجال الطبيعة من جهة و ذلك من خلال الأعمال الممارسة كالنوم و الإنجاب و من جهة أخرى مجالا للثقافة لما تقام فيه من أعمال و ممارسات ثقافية كالطبخ و النسيج. (Bourdieu Pierre, 1980, pp441-461)

وتخطيط المنزل كان تقليديا و هو ما يعرف بنظام البيت المفتوح على الداخل و ذلك بوجود فناء يتوسط المنزل و يحاط بعدد من الغرف. و هذا ما كان يتميز به المنزل العربي التقليدي محققا بذلك للخصوصية التي تتطلبها نظام العائلة العربية، و قد تم استبداله بنظام الانفتاح على الخارج، حيث تنفتح فيه الحجرات أو الغرف على الفضاء الخارجي الذي يعج بالغرباء و ما يتسببون فيه من ضجيج و ضوضاء. لذلك كان الاهتمام بالفناء و هو فضاء مفتوح على الداخل أو ما يعرف بوسط الدار. إن الباحث في الثقافة العربية يجد أن الاهتمام بجواهر الأشياء ميزتها. لهذا السبب جاء الاهتمام بوسط الدار يختلف كل الاختلاف عن الثقافة الحديثة التي من أولوياتها الاهتمام بمظاهر الأشياء و ماديتها.

فالاهتمام بالفناء كان بدعوى تحقيق الأمن و الأمان، فيه تمارس مختلف الأعمال القائمة على التضامن و التكافل تحت ما يعرف بالتوزيع. وتكثر هذه الظاهرة خاصة أيام الحصاد أو الاحتفالات العائلية كالأعراس. هذا إلى جانب كونه مكانا مريحا للعب الأطفال . و هو بالإضافة الى ذلك يرتبط فيه تفاعل

البعد الأثروبولوجي في تخطيط و بناء المسكن في المجتمع الجزائري

الإنسان مع الطبيعة من خلال تحقيق التقابل بين الظلمة و النور و بين الانغلاق و الانفتاح و بين الحرارة و البرودة. و قد تم استبداله بنظام البيت المفتوح حيث تنفتح فيه الحجرات على الخارج أو الغرف على المنازل المقابلة له على الشارع و ما يحمله هذا الأخير من فقدان للحرمة و خرق للحميمية. لذلك كان الاهتمام بالفناء أو ما يعرف بوسط الدار في الثقافة العربية الإسلامية منصبا على الجوهر أو المضمون لا بالشكل الذي يتجلى في الاهتمام بالمظاهر الخارجية أو بالطابع المادي من تزويق و تنميق و تشكيل، و هذه ميزة الثقافة الحديثة.

- و قد يفقد المسكن هويته حينما يحصل التناقض بين ما هو كائن و بين ما ينبغي أن يكون.. هذا ما يلاحظ اليوم من بعض التناقضات الحاصلة في السكنات الاجتماعية التي تبنى من قبل مهندسين معماريين. فكثيرا ما نجد السكن الاجتماعي العمومي يفترق إلى الجودة و النوعية بحيث لم يراع فيه خصوصية الساكن الجزائري و هويته و الطابع المحلي لمنطقته، الأمر الذي يؤدي إلى إحداث تغييرات من طرف المستفيد من السكن يتماشى و الثقافة التي يفرضها المحيط الاجتماعي، كتوسيع الصلاة على حساب غرف أخرى لان ذهنية الجزائري و ثقافته قائمتين على إكرام الضيف و ما يتطلب من حسن استقبال و اهتمام. أو إحداث تغيير داخلي يستجيب لحاجياته الضرورية.

- إن استبدال نظام البيت المفتوح على الداخل بنظام البيت المفتوح نحو الخارج هو استبدال ثقافة تقليدية أصيلة بثقافة غربية حديثة. مما يعكس ذلك على فقدان مسألة الحشمة و السترة و الخصوصية و التي تعد أهم قيمة دينية تقليدية تجعل الساكن يعيش نوعا من الاعتزاز الثقافي.. هكذا فان تطور ثقافة المباني في ظل الهندسة المستمدة من الفكر الغربي كان سببا في تغييب القيم الأخلاقية و الإسلامية من حياة الجزائري. و هو تغييب في الوقت نفسه للقيم الجماعية التي تزخر بالتضامن و التعاون. فأصبح المسكن نموذجا مفتوحا على الخارج لا يعبر اهتماما للخصوصية و المحلية. لهذا نجد عزوفا لبعض الآباء عن زيارة أبنائهم أو المكوث عندهم. خاصة عند ساكني العمارات و ذلك بسبب ما يواجهونه من إحراج عند دخولهم لبيوت الخلاء مثلا.

حينما كان البعد التقليدي حاضرا في التخطيط لبناء المسكن، كانت كل المشاكل المتعلقة بالحشمة و الحميمية تحل وفق هذا المعيار. غير أن الحداثة غيّبت الكثير من هذه المعايير و فرضت نمطا آخر من السكنات يستجيب لثقافة أخرى لها قيمها و معاييرها تتعلق بنظرتها للحياة و للوجود. فالجتمتع الجزائري غالبا ما تعرض لانفتاح صارخ غير مقنن على التشريعات العمرانية الغربية كحلولة جاهزة لمشكل

زازوي موفق

السكن. و هذا ما تجسده وسائل التهئية و التعمير، و المتمثلة في تصاميم تبلورت في بيئات غربية غربية عن الثقافة المحلية دون الأخذ في الاعتبار المقاييس العمرانية و المناخية الملائمة لتخطيط المجال الخاص بكل منطقة.

إن طبيعة هذه التصاميم خلقت مشاكل اجتماعية وخيمة. فالسكن في العمارة على سبيل المثال طرح مشاكل عدة منها ضيق السكن وضيق غرفه. فالسكن في البلدان الغربية يخضع لنظام صارم و مدروس. فعدد الغرف تحتسب حسب عدد أفراد الأسرة. غير أن الثقافة التي يحملها الجزائري لا تأخذ بهذا النظام. الأمر الذي يخلق نوعا من الفوضى..

و من المشاكل المطروحة عند ساكنة العمارة مسألة غسل الملابس وتجفيفها. ففي الدول الحديثة تخصص آلات غسيل عمومية تفي بهذا الغرض. لكن عدم توفر ثقافة للسكن في الدول التي لا تأخذ بعين الاعتبار الطابع المحلي جعل ساكنة العمارات يخصصون الشرفات كمكان لتجفيف الملابس .

إلى جانب ذلك فان هاجس الأمن خلق نوعا من فوبيا الخوف و القلق لدى السكان الأمر الذي دفعهم إلى تسييح النوافذ، خاصة في العمارات دون توحيد أشكال التسييح. مما أعطى نظرة و صورة مشوهة و غير جمالية للعمارة.

. و قس ذلك على وضع الفضائيات المقعرة. و الأمر نفسه عندما يتعلق الأمر بالاحتفاليات و الأعياد الدينية كعيد الأضحى .

من هنا يطرح السؤال المشروع لماذا لا تؤخذ بعين الاعتبار الحاجيات الضرورية للفرد الجزائري و للأسرة الجزائرية؟، و لماذا لا تخصص أماكن لذبح الأضاحي.؟ فتحل بذلك الكثير من المشاكل المترتبة عن هذا الوضع.

4. الخاتمة:

- ما يمكن استخلاصه أن المسكن ظاهرة معقدة تتداخل في بنائه عوامل عدة منها المادية المتعلقة بطبيعة المناخ ونوعية المواد و أهم التقنيات المستخدمة في ذلك إلى جانب العوامل الاجتماعية و الثقافية و تبقى هذه الأخيرة العنصر الهام في ذلك.

البعد الأنثروبولوجي في تخطيط و بناء المسكن في المجتمع الجزائري

- إن المسكن في المخيال الشعبي يحمل جملة من الترابطات ، فقد يكون له ارتباط بالمرأة لما تمثله هذه الأخيرة من خصوصية و حميمية.

إن دراسة هذا الفضاء في المجتمع الجزائري نجده قد ارتبط بجملة من الممارسات و الطقوس نظرا لقدسيته.

إن ملاحظة هذه السلوكات عند الجزائري قد يبدو فيها بعض التناقض .لذلك فان محاولة فك وفهم هذا الالتباس يتطلب فهم إشكالية التقليد و الحداثة في المجتمع الجزائري.

- وقد يرتبط في علاقته بالهوية لأنه يعبر عن شخصية و ذاتية صاحبه و يحمل تعابير ثقافته و معتقداته. إلى جانب ذوقه الجمالي.

- إن غياب فلسفة للتخطيط تأخذ بعين الاعتبار ثقافة المجتمع المحلي وعاداته و تقاليده و نظرتة للحياة و للوجود، تجعل المسكن و ساكنه يفتقدان هويتهما. هذا الأمر يترتب عنه فوضى و تشوه عمراي يشكلان السمة الغالبة على تخطيط المسكن مما ينعكس سلبا على نفسية أفراد المجتمع.

5. قائمة المراجع

القرآن الكريم

- ابن منظور، لسان العرب بدون سنة ، دار صادر، المجلد الثالث عشر ، بيروت.
-Edward Sapir, 1967. Anthropologie, traduit par l'américain Christian et pierre l'inquart, édition minuit.

- عبد العزيز سيد الأهل، قاموس القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة 3، 1980.
-Van gennep Arnold,,2003 les rites de passage, Editions A .et J. picard, paris.

- عماد صولة، سنة 2005 صيرة الرمز من العتبة إلى الدار قراءة أنثروبولوجية في المسكن التقليدي التونسي، في إنسانيات، العدد 28.

- ينظر بيار بونت ، ميشال ايزار، 2011، معجم الأنثولوجيا و الأنثروبولوجيا، ترجمة و إشراف مصباح الصمد الطبعة 2 بيروت لبنان .

- Pierre Bourdieu, 1980. le sens pratique, annex : la maison ou le monde renversé, éditions de minuit, paris.

- جميل صليبا، 1982 المعجم الفلسفي، ج2، دار الكتاب اللبناني مكتبة المدرسة، بيروت، لبنان.

زازوي موفق

- دنيس كيش، 2007 مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة منير السعداني، الط1 ، مركز دراسات الحدة العربية، بيروت.
- دوران جيلبير، الأنثروبولوجيا، 2006. رموزها و أساطيرها أنساقها، ت. مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات النشر و التوزيع، بيروت، ط3،
- عبد العزيز سيد الأهل، 1980، قاموس القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة 3 .
- عبد الله بن معمر، 2018، الفضاء السكاني في الثقافة الجزائرية، محاولة في أنثروبولوجيا المنزل، دار كنز للإنتاج النشر و التوزيع، الطبعة 1.
- سليمان بومدين، 2007، تصورات المغاربة لحزمة الدار في إنسانيات العدد..،
- كلود لفي ستروس، 1986، الأسطورة و المعنى ، ترجمة و تقديم د. شاكر عبد الحميد، مراجعة د. عزيزة حمزة، دار الشؤون الثقافية العامة.
- محمد بشير، 2017، جمال غريد السوسيولوجي و الأنثروبولوجي صاحب الثنائية الثقافية، دار كنوز للإنتاج و النشر و التوزيع و المكتبة الوطنية الجزائرية.
- marcel Mauss, 1967, manuel d'ethnologie, éditions Payot.
- Maurice davan, marcel Cohen, Maurice Lallemand , 1976, dictionnaire du français vivant, nouvelle édition entièrement revue et augmentée, bordas, paris.

المجلات:

- محمد سعيدي، 1997 الدار- المرأة: رمزية الفضاء بين المقدس و الدنيوي في الثقافة الشفوية، مجلة إنسانيات، عدد2.